الجزيرة العربية بين البخور والبترول

بقلم : اليزابيث مونرو

مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة اكسفورد

ترجمة : محمود محمود

ان اسم الجزيرة العربية يرتبط ارتباطا كليا في هذه الايام بزيت البترول ، وقلما نسمع به في معرض الحديث عن محصولات هامة اخرى في تاريخها مثل البخور واللؤلؤ والبن مما يقفز الى الذهن مباشرة • ولكن ارجو أن اذكر صادراتها من سلع اخرى توافرت بكميات كبيرة ، وكذلك الطرق التى سارت فيها حتى بلغت الاسواق التىكانت تشتريها •

(١) هذا المقال ترجمة لمقال باللغة الانجليزية للكاتبه ومنشور بالقسم الانجليزي بهذا العدد •

ان اقدم ما عرف من صادرات الجزيرة العربية ـ فيما اعلم ـ هو النحاس • وسوف ابين فيما بعد الحاجة الى هذا المعدن • عندما اكتشفت المدينتان العظيمتان الواقعتان على جانبي الجزيرة ـ مصر وسومر ـ ليونة النحاس وقابليته للانصهار اشتدت رغبتهما في استيراده ، لأن المعادن لم تكن موجودة محليا في كلا البلدين • ولتوضيح ذلك اذكر ان الناس كانوا ـ لانعدام المسامير ـ يربطون الواح السفن بالياف النخيل ، ولبثوا على ذلك عدة قرون • ولازلنا في الوقت الحاضر نراهم يفعلون ذلك على الشطئان العربية النائية ، وكان لمصر في هذا الفضل موقف نظرا لاكتشافها النحاس في وقت مبكر في سيناء ، ومناجم اخرى في شرق وغرب اعالي النيل ، ثم اكتشف النحاس بعد ذلك في قبرص • اما سومر فكانت في موضع أسوا ، ولذلك فسوف ابدا بواردات سومر من النحاس •

اننا سعداء الحظ في دراستنا لحضارات ما بين النهرين لانها سجلت تاريخها على مادة لا تستهلك ، وهى الصلصال • ان الالواح المصنوعة من الصلصال التى اكتشفت في القرن التاسع عشر بعشرات الآلاف على يد لايارد في Kuyunjik (نينوس) ، والامريكان في نيبور ، وسير ليونارد وولى في أور تتضمن تسجيلات تجارية ، وعند فك رموز هذه التفصيلات المحلية في بداية الامر في القرن التاسع عشر اهملنا شانها لاننا ركزنا كل اهتمامنا على مقدار تاكيد المحتوى التاريخي في هذه الالواح للتاريخ كما أورده الانجيل • وباستثناء هنري رولنسون قل من الاوربيين من عني بالمعلومات الاجتماعية في هذه الالواح ، وكلهم كان يتطلع شمالا وغربا نحو فلسطين • ولكن الالواح التى اختارها رولنسون للنشر منذ عام ١٨٦١ كانت تورد احيانا اسماء بلاد من الجنوب ، ومن بينها ديلم (١) ، التي وصفها كجزيرة في البحر المر ـ جزيرة بهيجة تجرى فيها انهار من الماء العذب ، وبخلاف ديلم كان هناك بلدان آخران ماجان Magan ـ وهى اقربهما اليها ـ وملوحه Meluhha ـ وهناك اشارات الى جزيرة ، رمياه ، ذكرت معها توجيهات ملاحية تافهة ، اوحت الى رولنسون ان الجزيرة ربما كانت البحرين • واكثر من ذلك ان وجود ديلم امكن تحديده بين سلسلة من التواريخ بفضل ذكر الجيران او الاعداء • وقد وجدت الديلم على الاقل من زمن سارجون الاكادى Sargon of Akkad (حوالى عام ٢٣٠٠ ق•م•)

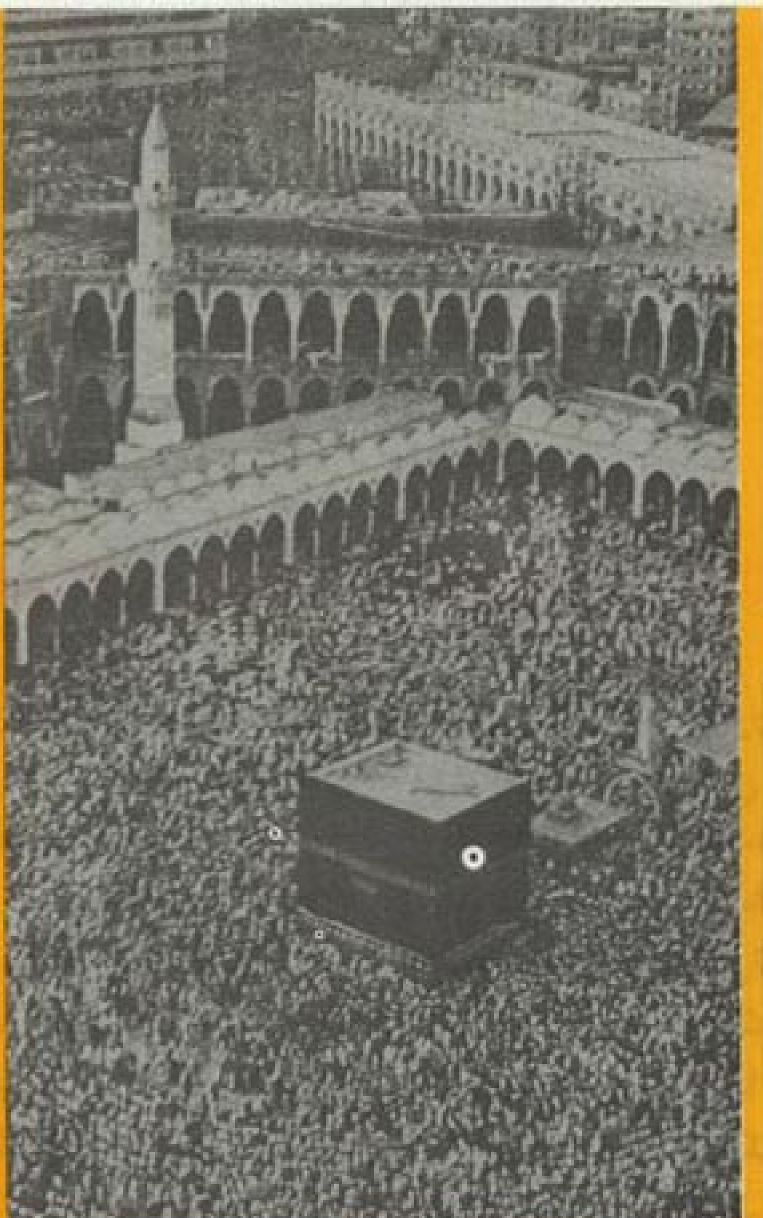

الى زمن سارجون الاشورى Sargn of Assyra في القرن الثامن قبل الميلاد .
اما فيما يتعلق بهدفنا من ذكر الصادرات العربية فان اكثر السجلات التجارية صلة بالموضوع كان من اكتشاف دولى في اور وهى تتعلق بعمل تاجر او وسيط من هذه المدينة في قرابة عام ١٨٠٠ ق.م. وكان هذا التاجر يستورد النحاس والباح وجلد السلحفات و « عيون السمك » (وقد فهم اكثر مفسرى الرموز هذه على انها تعني اللؤلؤ) من زميل له في التجارة في ديلم . وكان يستورد النحاس بكميات مذهلة بالنسبة الى نوع وسائل النقل التي تيسرت له ، في وقت كانت السفن فيه لاتعدو ان تكون حزما من الغاب ، وعندما كان الحمار العربي القوي هو خير وسيلة نقل برية . وكانت الشحنة الواحدة تبلغ ثمانية عشر طنا ونصف .

ومن الواضح ان ديلم تستدعي تحقيق المكان ، ومع ذلك فان البحوث الاثرية لبقاياها في البحرين لم تبدأ الا في عام ١٩٥٣ ، ويرتبط اسم جوفري ببي بهذه البحوث . وكان ببى في بداية حياته موظفا في شركة بترول وتامل الحقول الشاسعة التي تقع جنوبى قرى ومدن البحرين . وكانت النظرية السابقة تقول بان هذه الحقول لا بد ان تكون مقابر حضارة داخلية ، ولكن ببى انكر ذلك وامعن في التفكير وبالقرب من قرية تعرف باسم بربر كشف اولا عن معبد ، وبالقرب منه قصر ، ثم حفر في احد التلول فكشف عن سبع مدن تقع احداها فوق الاخرى . وارخ ببى هذه

الحضارة وفقا لما وجده من اواني خزفية واوزان واختام · وقرر انه كانت بينها وبين سومر وحضارة السند العظيمة علاقات تجارية انتهت فجاة في عام ١٧٥٠ ق·م· ومما يهم العرب السعوديين انه وجد مواقع بربرية اخرى ، احدها في جزيرة فيلكه تجاه الكويت ، ولم يستطع البحث عن الاخرى لأنكثبانها تقع تحتقرية وحمام سيدات في الطرف الجنوبي من جزيرة تاروت الخضراء تجاه القطيف مباشرة · وقد ورد ذلك في كتابه (البحث عن ديلم) · ويهمنا هنا أن نعرف ان ديلم كانت اكبر مما تصور ، وانها قرية من البحرية ، وكانت قطعا ميناءبحريا ، وقد وجد فيها « ذرات عديدة من النحاس في رمال الشاطيء » وهذا النحاس كان يعالج محليا ، ولكنه لم يكن ينتج محليا ، بل ولم يكن خالصا ، ففيه آثار من النيكل ، وهو مخلوط شبيه بالمخلوط النحاسي الذى عرفناه في منتصف العشرينات عند البحث عن البترول في الجبال التي تقع شمالي عمان ، وهنا تعيننا الواح اور في زيادة التفهم للموضوع ، فهي تنبئنا بان وارداتهم النحاسية كانت من « انتاج ماجان » تاتى من هناك مباشرة احيانا وعن طريق ديلم احيانا اخرى · وربما حق لنا ان نقول أن ماجان هي عمان وان النحاس كان اهم صادرات الجزيرة العربية ·

ومحصول آخر كانت تصدره الجزيرة العربية من قديم هو اللؤلؤ الذى سوف اعود اليه فيما بعد · ولكن قبل ان اترك ديلم والواح مابين النهرين المصنوعة من الصلصال اروي هنا أسطورة هامة عن اللؤلؤ · ولعل اكثر الواح مابين النهرين شهرة هو اللوح الذي يروي قصة الفيضان لعهد نوح وتعرف باسم ملحمة جلجاميش ، وجلجاميش هذا ليس هو نوح ، انما هو شخص شبيه بهرقل عرف باداء الاعمال الشاقة وبالشجاعة ، ولذلك تمنى ان يوهب حياة ابدية ، وقد ظفر نوح بهذه الهبة بمياه ديلم ، ولذلك ذهب جلجاميش الى ديلم لكي يعرف سر نوح وعرف من نوح ان (زهرة الخلود) يمكن التقاطها من قاع البحر ، كما عرف كيف يفعل ذلك ، يجب ان يربط حجارة ثقيلة بقدميه ثم يغطس الى أعماق البحر ليلتقط نباتا شائكا كالورد ، عندئذ يفصل الحجارة الثقيلة عن قدميه ويطفو على السطح ، وهذه الحيلة بكل تفصيلاتها شبيهة بما يفعله صائد اللؤلؤ وعنوان القصة (الرجل يعود الى الشباب في شيخوخته) ولكن لسوء حظه عند عودته الى عروق Uruk خرج له ثعبان من جحره والتهم اللؤلؤ ـ وهو يستحم في احد الآثار المطرية ـ وحرمه من النعمة التي كان يترقبها ·

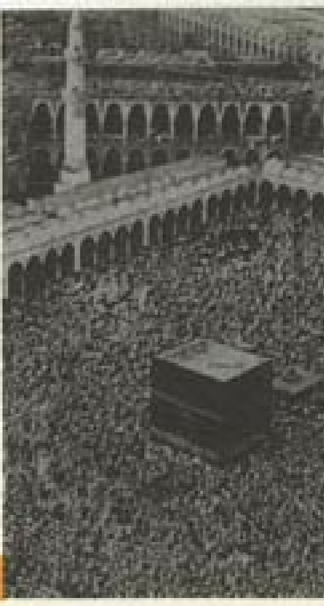

واترك الاسطورة الآن لاعود الى الحقيقة عندما اتحدث عن تجارة البخور ـ وهو المحصول الاحتكارى الذى يرتبط بالاهمية التى ينالها البترول العربى اليوم • والبخور يتالف من اللبان والمر ، وبخاصة من المر ، وهو نوع من الصمغ تجده تحت قشور الاشجار ويستخدم في تحضير الدواء ومواد التطرية والتحنيط • وهو ينمو في المناخ الحار الرطب ، ويشيع وجوده على الساحل الافريقي للطرف الجنوبي للبحر الاحمر ، ولكن ينمو على الجانب العربي كذلك ، وكان كما يقول الخبراء يزرع في وقت ما قرب بيجان فيما يعرف اليوم باسم جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية •

واللبان كذلك نوع من الصمغ يوجد تحت قشور الاشجار ، سريع الاحتراق واندر من المر • وينمو نوع منه في شرق الصومال ، ولكن احسن انواعه ينمو في جنوب شرق الجزيرة العربية في ظفار ، وهو يستعمل في العبادات (٢) والمضغ ولتغطية الروائح الكريهة ، وهو من مركبات الكحل الجيد ، وحتى العهد الحاضر يعد من الوائح الكريهة • وهو من مركبات الكحل الجيد ، وحتى العهد الحاضر يعد من الهدايا الملائمة التى يعود بها الحجاج ، وان كان الاسلام من الاديان القليلة التى لم تستخدمه باحراقه في التقرب الى الله •

في حين ان قدماء المصريين كانوا يحرقون البخور للآلهة، كما يستسيغون التوابل، وكانوا يجمعونه من بلادهم ومن اعالي النيل ، ويرسلون الحملات منذ الاسرة الخامسة والسادسة الى بلاد بنت ـ ولسنا ندري ان كانت بنت هذه هي بلاد الصومال او الجزيرة العربية ـ ثم كان عهد الملكة حتشبسوت التى ارسلت بعثة كبرى الى بلاد بنت وسجلتها على جدران معبد الدير البحرى تجاه الاقصر ، وكانت في حاجة الى المر وقد عادت باشجار عديدة منه الى مصر ، ولكن زراعته لم تفلح في الجو الجاف •

والرحلة الاخرى الشهيرة المتعلقة بالتوابل العربية قامت بها ملكة سبا الى سليمان في القرن العاشر قبل الميلاد تحمل اليه قدرا كبيرا من التوابل ، وسوف اعود اليها بعد ما اصف الممالك التى اتت فيها •

ومن المعلومات الاثرية التى لدينا ندرك ان تجارة البخور كانت العمل الرئيسى في عهد ملكة سبا في اربع او خمس امارات تابعة للجزيرة العربية السعيدة وهى اليمن وظفار الحديثتان • وقد كان الحكام الجدد في هذه البلاد من زمن بعيد يعترضون على

الدخلاء لانهم لميتصوروا ان الاجانب الذين ينقبون تحتالاحجار الكريمة من الزوار ذوى السمعة الطيبة ، وذلك لانهم هم انفسهم لا يهتمون نسبيا بتاريخ ما قبل الاسلام ومن انتشار التعليم ووجود الاثريين العرب انفسهم ينقبون عن تاريخ بلادهم القديم بدات هذه العوائق في التناقص • وبرغم ذلك فما برح اكثر معلوماتنا عن التاريخ القديم لجنوب الجزيرة العربية مستمد مما هو ظاهر فوق الارض ، وقل منه ما نعرفه من الحفريات التى تعطينا ما يسميه بيى « دليل المعول »

والممالك الاربعة الرئيسية هي حضر موت مصدر اللبان وقعطبة وسبا ومعن ، والاخيرة وهى اقصاها شمالا كانت ناقلة للتوابل اكثر منها زارعة له ونقوشها كثيرة في مركزها التجاري في العلا شمالي المدينة ، كما تجدها في مصر وحتى جزيرة Delos (ديلوس) في البحر المتوسط • ونعرف من الآثار والنقوش في هذه الممالك ــ واشهرها سد مارب العظيم سبأ ــ انها كانت منتعشة على الاقل من القرن السادس قبل الميلاد حتى النصف الثانى من القرن السادس بعد الميلاد ، وانهم كانوا شعوبا مستقرة لها ثقافتها التى نموا الكثير منها وهم في عزلتهم ، وانهم عاشوا عيشة طيبة على الانتاج الزراعى الذى يعتمد على الفيضانات التى تتحكم فيها السدود ، وانهم في سنواتهم الاخيرة استوردوا او قلدوا الفن الهلينى ، وانهم كانوا يقومون بتجارة رابحة بقوافل الصحراء شمالى مصر وسوريا وشرقا عبر شبه الجزيرة حتى الخليج العربي • وفي بواكير عصرنا هذا قام قوم يقطنون قريبا من الساحل الجنوبي ــ هم الحميريون ــ بغزو جيرانهم في الشمال ، واطلقوا اسمهم على المنطقة كلها •

وفي القرن السادس بعد الميلاد انهارت كل هذه الحضارة المزدهرة بسبب الجدل الديني من ناحية وتدخل القوتين العظميين في المنطقة ــ وهي فارس وبيزنطة ــ من ناحية اخرى ، وقد استخدمت بيزنطة الاثيوبيين المسيحيين جنودا ضد ملوك اليهود المحليين ومن علامات الانحلال انفجار سد مارب العظيم ــ وتمكن الفرس في نهاية الامر من ضم جنوب الجزيرة العربية ودالت دولة الحميريين •

اما عن ملكة سبا التى كانت تتاجر بتوابلها مع الشمال فقد لجات الى سليمان ، فبنى ميناء في Ezion - Geber (على خليج العقبة) واستاجر فينيقيين خبراء

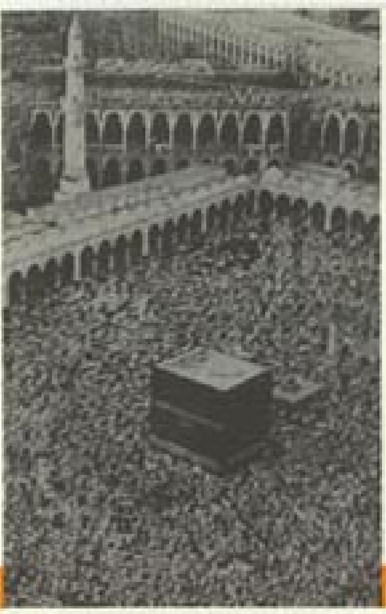

لبناء اسطول تجاري والابحار فيه • اما هي فكانت تستخدم قوافل الجمال وطريق البر ، وهذا الميناء الجديد وخطوط المواصلات الجديدة هددت بقطع الطريق البري الى احسن اسواقها في مصر وسوريا ، وربما كان ذلك لحصرها تماما • ويحق لنا ان نتصور ان رحلتها كانت رحلة تجارية تهدف منها اما الى الاحتفاظ بطرقها البرية واما الى ان تحدد نصيبا عادلا لكل من طريق البر وطريق البحر •

وكانوا ينقلون حصا البان اما على اطوان الى ميناء تسمى Cana ومن هناك تسير التجارة في الطريق البري •• او تذهب مباشرة عن طريق وادي حضر موت لمكان تخزن فيه عند شبوا Shabwa وهو مكان مهجور في الوقت الحاضر ولكن كان فيما مضى عاصمة لمملكة غنية ـ وهنا كان رجال الدين يستولون على جانب من البان لمعابدهم ، ثم تواصل التجارة سيرها ، ويضاف اليها المر من قعطبة ، وتتجه أولا ناحية الغرب ثم شمالا عبر الممالك الاخرى ، وكل منها يحصى المكوس • وبعدئذ كان يقوم بنقلها المينويون Minaeans شمالا بالطريق الذى يقع داخل جبال اليمن والحجاز ـ وهو طريق اصبح فيما بعد من طرق الحج المطروقة ـ الى نجران ومكة ويثرب (المدينة) والعلا ومن هناك ، او من «الهجرة» (مدائن صالح) شمالا كان النبطيون يحملونها الى البتراء حيث يتم توزيعها عن طريق غزة في مصر وسوريا وما وراءهما •

ولكى تصل السلع الى الخليج العربى كانت تتجه الى نجران وتعبر شبه الجزيرة شمالي الربع الخالي بطريق بينته أخيرا الحفريات السعودية في الفاو في جبل طويق حيث كانت تقام سوق ومستعمرة سباية ، ومن هناك تتجه الى الشمال الشرقي اما عن طريق الافلاج او الخرج أو عن طريق جبرين (٣) الى مدينة على الساحل تسمى جرعاء Gerrha بها سوق ، ونحن نرجح اليوم ان أهالي ظفار كانوا ينقلون حصا البان مباشرة الى جرعاء Gerrha عبر الطرف الشرقي من الربع الخالي ، وهذا امر من الصعب تحقيقه لأننا لم نعثر على موقع جرعاء Gerrha (٤) وكل مانعرفه وصلنا عن طريق الكتابات التي تقول بان جرعاء Gerrha كانت مركزا تجاريا ضخما غنيا • والارجح ان يكون هذا المركز قد تلاشى مع الزمن وقد يكون موقعه تحت رمال العقير جنوب الظهران ، او تحت انقاض مدينة من العصور الوسطى تسمى تاج هي الآن فيما وراء جبير (٥) ،وكانت قديما على بحيرة او

خليج • ومن Gerrha جرعاء كانت التوابل العربية والهندية تنقل برا وبحرا الى بلاد النهرين ، وكذلك برا الى البتراء عبر واحتى تيما وتبوك •

وكانت الطرق البحرية تستعمل أيضا اولا على اطواف من الغاب ثم في قوارب ولكنها كانت طرقا ساحلية لان شبه الجزيرة العربية لم تنتج الخشب لصناعة سفن تمخر عباب البحر ، كما أن البحر الاحمر تكتنفه الشعب المرجانية ، وتهب عليه الرياح الشماليه الدائمة ، وكذلك لم تكن توجد موانىء صالحة في جنوب شبه الجزيرة العربية أو على سواحل الخليج الشرقية ، ولم يكن يعرف شيء عن الملاحة العربية قبل غزو الاغريق للشرق الادنى الا أنه مما لا شك فيه أن ملاحى مصر وسومر وفينيقيا والهند كانوا يبحرون في المياه العربية قبل ذلك التاريخ بوقت طويل • وكان العرب يفعلون ذلك أيضا لانهم لو لم يخاطروا في عرض البحر لكان من الصعب أن نعلل سبب ثراء ممالك البخور الغنية • ومن المعتقد ان مصر وما بين النهرين كانتا تجلبان التوابل من المناطق الاستوائية مثل القرفة والهيل والقرنفل والزنجبيل وجوز الطيب وهى من منتجات أفريقيا أو الهند •

ولما وصل الاغريق عطلوا هذه الاحتكارات ولكنهم لم يوقفوها • وكان الاسكندر قبل وفاته بيومين قد أعد حملة بحرية حول شبه الجزيرة وقاد الحملة نيركوس Nearchus من مصب نهر السند مارا بساحل ماكران ، وكان يستطيع أن يحقق ماكان يصبو اليه الاسكندر الا أن المشروع انتهى بوفاة الاسكندر عام ٣٢٣ قبل الميلاد وبذلك تعطل تدخل الاغريق في تجارة التوابل لمدة قرنين •

وعند ما جاء خلفاء الاسكندر من البطالمه والسلوقيين عملت سفنهم بالتجارة الا أن ذلك لم يكن له أثر واضح على الاحتكارات العربية حتى عهد بطليموس السابع عندما اصبحت السفن قادرة على الابحار من لسان بحرى عند عدن أو سومطرة الى ساحل ملبار في الهند وتعود اما الى جنوب شبه الجزيرة لجلب اللبان واما الى الوطن مباشرة • ومنذ ذلك الحين أصبحت توابل المناطق الاستوائيه الآسيويه ، بل حتى البضائع من الصين تصل الى مصر والى البحر الابيض مباشرة • وعلى الرغم من ذلك ظل العرب في جنوب الجزيرة محتفظين بتجارة التوابل لفترة خمسة قرون أخرى على الأقل للتعويض عن الاحتكار الذى فقدوه وذلك بذكائهم لانهم ظلوا وسطاء للجمعيات التجارية •

ان افضل دليل لنا على هذه الفكرة السائدة وعلى مقادير البضائع والسفن التى كانت تفرغ وتحمل في الموانى العربية وكذلك المعاملات مع مصر والحبشه والصومال وشرق افريقيا وفارس والهند ـ هو نوع من القوارب استخدمه تاجر يونانى غير معروف او قبطان بحرى من مصر في القرن الاول الميلادى ، وهو الذى راى بنفسه معظم الاماكن التى يصفها • ولسوء الحظ كتب وصفه باللغة الاغريقية المصرية والنصان الموجودان عرضة لمناقشة العلماء •

ويوجد دليل أكثر أهمية عن ازدهار تجارة التوابل في شبه الجزيرة العربية ـ وهو دليل أثرى للثروة المجلوبه ، دليل مكتوب من المستهلك لتلك البضائع العربية ، وقد كان الحقد بالنسبة لهذا الاحتكار سببا في هجوم المتنافسين الاجانب على هذا الاحتكار ـ وياتى دليل المستهلك هذا من كل مكان : من مصر القديمة او البطلميه حيث كانت قيمة اللبان ثمينة لدرجة أن العمال كانوا يفتشون عند مغادرتهم للمصنع الذى يصنع فيه ، ومن بابل حيث كانت مائه وزنه من هذه المادة الثمينة تحرق سنويا في اعياد الآلهة ، ومملكة يهوذا واسرائيل والهند واليونان وأخيرا روما حيث كانت تستعمل مستوردات عام كامل من شبه الجزيرة في تحنيط الامبراطورة بوبيا في عام ٦٥ الميلادى ، وحيث كما كتب Tertullian (ترتوليان)

« اذا ضايقتنى رائحة اى شيء فما على الا أن أحرق شيئا من شبه الجزيرة »

ويوجد اقتباسان آخران لاتمام هذه الصورة •

الأول من الجغرافى البطلمى Agarthachides في القرن الثانى قبل الميلاد حيث قال : (يبدو انه لا توجد دولة أكثر ثراء من دولة سبا Gerrhaians (واهل جرعاء) وهم العملاء لكل شيء يقع تحت اسم « استيراد من آسيا الى أوربا » والاقتباس الاخر بعد ذلك بقرنين ياتى من بلينى Pliny « على اقل تقدير تاخذ الهند والصين وشبه الجزيرة العربية من الامبراطورية مائة مليون سسترق (عملة يونانية) كل عام • وهذا هو المبلغ الذى ينفق على كمالياتنا ونسائنا •

ودليل الثالث هو الهجوم الذى حدث نتيجة لحقد الطامحين وعندما حاول

بطليموس الثانى ، فيلادلفوس ، أن يعيد فتح طريق بحر سليمان صمم النبطيون في البتراء على الاحتفاظ باحتكارات شبه الجزيرة وهاجموه برا وبحرا بقوة كبيرة ، وحدث بعد ذلك على الجانب العربى للخليج في شبه الجزيرة أن صمم الحاكم السلوقى انتيوكوس الثالث Antiochus III (حوالى ٢٠٥ قبل الميلاد) على الاستيلاء على تجارة جرعاء Gerrha ويوجد دليل على ثراء اهل جرعاء في قدرتهم على رشوته بجزية كبيرة من الفضة واللبان والمر • ويذكر لنا بوليبوس Polybius انهم « رجوه بألا يقضى على ما منحتهم الآلهه ـ الحرية والسلام » فتركهم •

واخيرا جاء الرومان فارسل اوغسطوس الى شبه الجزيرة العربية في عام ٢٤ قبل الميلاد اغرب حملة في التاريخ • ولم تكن لديه او لدى قائده « اليوس جالوس » اية فكرة عن أحوال الصحراء فاخذ أليوس جالوس قواته في أول الامر عبر البحر الاحمر الشمالى الهائج حتى ميناء النبطيه على ساحل شبه الجزيرة المسمى Leuce-Come (ينبع الحديثه) وهناك قابلتهم فرقة نبطيه ولكن كان لا بد لهم من أن يمكثوا هناك عاما تقريبا حتى يشفوا مما عانوه من أمراض • وعندئذ سار القائد بقواته جنوبا حتى وصل الى نجران في ستين يوما ، ثم انتصروا في شمال اليمن وساروا الى مارب حيث قيل له أنه على مسيرة يومين من دولة البخور ، ولكنه هو ورجاله تعبوا وعجزوا عن ان يفعلوا شيئا أكثر من ذلك • وبعد أن ادعى أن حلفاءه من أهل البتراء قد خدعوه انسحب بما تبقى لديه من رجال الى مصر •

وجاء مهاجم قوى آخر هو تراجان Trajan الذى استولى على البتراء وحولها الى ولاية رومانية عام ١٠٥ ق•م• وهاجم أيضا الموانى الواقعة على رأس الخليج العربى ولكنه لم يستمر طويلا ومع أن الرومان لم يقضوا على التجارة العربية الا انهم نجحوا في تخفيض تلك التجارة ، أما القضاء عليها ، كما قيل فقد تم بعد ذلك وعلى أيدى أشخاص آخرين •

ومن المحتمل ان تكون لتجارة البخور الاولى التى وصفتها نتيجة تميز تاريخ المحيط الهندى كله وتلك هى تجارة الرقيق • ونحن ننسى في عصر السرعة الذى نعيش فيه الآن ما كان يلاقيه الاقدمون من مخاطر عند ما كانوا يرسلون البضائع والوثائق بواسطة سفن صغيرة تقطع رحلات طويلة ومعرضة للعواصف والحروب

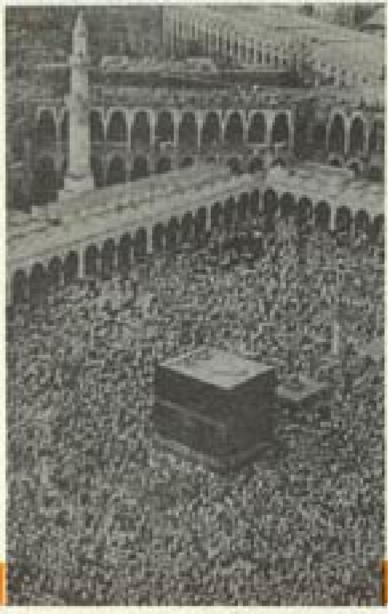

والقرصنة ، ولعلاج ذلك كانوا يقيمون بعض العلاقات الشخصية مع من هم من دينهم في المناطق البعيدة أو يرسلون مندوبا معتمدا مع الشحنة المصدرة • وكان هذا المندوب عادة ابنا أو صديقا أو عبدا •

واتماما لهذه العملية استقر الوكلاء العرب في الموانى البعيدة لمراقبة أعمالهم وعلى مضى الزمن كونوا حلقة حول الحوض الشرقى من المحيط الهندى وزاولوا التجارة في شرق أفريقيا وانتشروا جنوبا حتى مكان يسمى (رابطة) Rhapta لم يتعرف عليه حتى الآن ولكنه في مكان ما في تنزانيا الحديثه ، وانتشروا أيضا في الموانى المتوسطه Kilwa (كلوه) وما لنيدى وممبسه وتركوا تراثا معماريا وان لم يكن فيه شيء مما هو قبل الاسلام ، وقد لعبوا دورا بارزا في القرن الثالث عشر في التجارة الخارجية على ساحل ملبار في الهند ، وأبدى البرابرة Moors (وهو الاسم الذى أطلقه عليهم البرتغاليون عند وصولهم) مقاومة عنيفه ضد منافستهم في أعمالهم من قبل فاسكو داجاما (وان كان من قبيل التهكم أن بحارا عربيا خبيرا يدعى أحمد عبد الماجد (٦) Abdul Majid هو الذى ارشد داجاما الى الطريق من مالندى Malindi الى كلكتا Calicut) ـ وفي القرن الثامن عشر عمل العرب في قوات شركة الهند الشرقية • وكانت الشركة تدفع أجورا أعلى لمن ولدوا في شبه الجزيرة • وظل الحال كذلك حتى استقلال الهند في سنة ١٩٤٧ عندما جند نظام حاكم حيدر اباد هيئة الحرس الخاصة به من صلاله Salala والمكلا ، وفي سيلان مازال أحفاد من وصلوا في العصور الوسطى يديرون تجارة الصمغ ويتفاخرون بكلمة « مغربى سيلانى » الموجودة على جوازات سفرهم لتمييزهم عن غيرهم •

وعلى أى حال فان المكان الذى جاء منه أسلافهم هو عادة الموانى الساحلية الشمالية وفي بعض الاحيان من الشمال حتى جده ، وفي أفريقيا جاءوا غالبا من مسقط نتيجة لقوة عمان البحرية في القرنين السابع عشر والثامن عشر وسيادتها على زنزبار •

ومن المستحيل في هذه الخطوة القصيرة أن أوضح لك تاريخ تجارة شبه الجزيرة كله في العصور الوسطى أو أن أعرفك بالمعلومات التى تدين بها الى الرحالة الفراودى

وعلى الاخص ابن بطوطة ، أو أن أصف لك في لمحة سريعة البعثات التجارية الصينية سنة ١٤٠٥ ـ ١٤٣٣ • كما لا استطيع أن أصور لك وصول البرتغاليين والهولنديين والبريطانيين والفرنسيين بحثا عن وسائل للتحايل على الضرائب الفادحة التى كان يتقاضاها المماليك والعثمانيون على تجارة التوابل ويجب أن أقتصر فقط على السلع العربية •

أولا • اللؤلؤ : كان المار بشاطىء الخليج يجد أكواما مكدسة من أصداف المحار وهى نفايات سفن اللؤلؤ • وفي القرن الثانى الميلادى كان ازيدور Isidore of Charax يستكشف نيابة عنسيده السلوقى وهو يحدثنا عن غواصىاللؤلؤ الذين كانوا يستعملون أطواقا من الغاب كما يتحدث عنهم أيضا استرابو وبلينى Pliny وكذلك الجغرافيون البطالمة ورحالة العصور الوسطى ومن بينهم ابن بطوطه ومارك يولو • ويتحدث عنهم نيبور في القرن الثامن عشر ، ويأتى ذكرهم في قصص رحالة القرن التاسع عشر التى لا حصر لها وأفضلها عندى هى قصة المسز بيرنوت تومسون الجزئية التى رافقت بحارة بومباى في حملة سنة ١٨١٩ ـ ١٩٢٠ لاخماد الفتنة في ساحل القرصنة • وهناك كتبت من رأس الخيمة أن رائحة أصداف المحار الكريهة قد سلبتها لذة قراء الشعر • واذا أردنا الدليل على وجود الغوص بحثا عن اللؤلؤ في وقتنا الحاضر فلنقرأ قصة قصيرة كتبها الكاتب الفلسطينى غسان كنفانى وتقول القصة أنه بدلا من لعب كرة الموائد فيالكويت يشترى أحد الصعاليك كيسا من المحار ويراهن على وجود لؤلؤة فيه •

ثانيا • الذهب : نحن نعلم أن الذهب موجود في شبه الجزيرة وعلى الاقل منجم واحد • والخريطة التى نشرتها وزارة البترول والمعادن السعودية لم توضح الكثير عن المعادن الموجودة • ومع الخريطة ملحق يوضح أن المعادن مقصورة على منطقة ما قبل العصر الكمبرى (جيلوجى) وأعنى بها الحجاز وعسير وجبال اليمن ولا يوجد شىء في المساحات الرسوبية وأعنى بها الصحراوات الممتدة الى ساحل الخليج • ويتحدث استرابو وآخرون عن كميات من الذهب العربى ولكنهم لم يحددوا مكانه • وقد بحثت علنى أجد دليلا قديما ولكنى منيت بخيبة أمل • وتاريخ المسعودى في القرن العاشر ـ مروج الذهب ومناجم الاحجار الكريمة أصبح عنوانا رمزيا • ويذكر ولستد Wellsted في خريطة خليج العقبه في سنة ١٨٣٠ ميناء تسمى

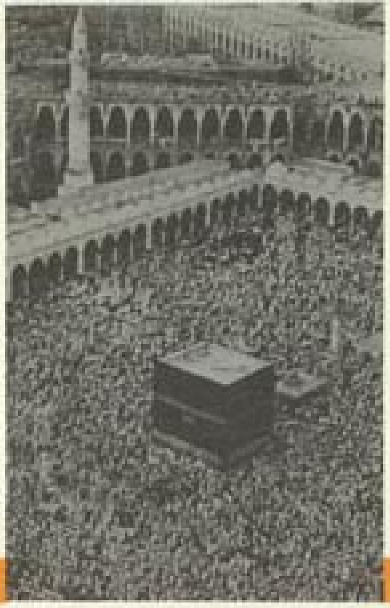

«مرسى الذهب» ـ ميناء الذهب ـ ولكن هذه التسميه كانت بسبب لون الميكا Mica الاصفر في الرمال ، وكتب بيرتون « مناجم ذهب مدين » ولكنه لم يجدها مطلقا ٠ والمادة الوحيدة التى قرأتها عن تعدين الذهب في العصور الوسطى هى في القرن العاشر للهمدانى Hamdani وهو يتحدث عن مناجم بين‌مكة والمدينه (٧)٠ ولدينا الآن معلومات حديثة بفضل حاجة المرحوم الملك ابن سعود للذهب في السنوات الأولى من حكمه ٠ الثلاثينات من هذا القرن عند ما استخدم مهندس المناجم الامريكى كارل تويتشل Twitchell للبحث عن الماء والزيت والمعادن ، حقق رغبتـه وان لم يكن ذلك بالقدر الذى يرضيه ٠ وقد حدد تويتشل موقع خمسة وخمسين منجم ذهب قديم ولكنه لم يستطع أن يستخرج ذهبا الا من منجم واحد فقط بكميات تجارية وذلك باستخدام الطرق الحديثة ٠ وسمى منجمه « مهد الذهب » ويقع جنوب المدينة وقد در ربحا (اقتباسا من فيلبي) قدره ٢٠ مليون دولار فيما بين عامي ١٩٣٤ ، ١٩٥٠ ٠

وأخيرا أتحدث الآن عن مملكتى الحيوان والنبات ، أما مملكة الحيوان فانى أقتصر على دواب الركوب السريعة القيمة التى كانت ولا تزال تشتهر بها بلاد العرب وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر سار الرحالة الاوربيون برا من الهند في قوافل كبيرة متجهين الى الكويت أو البصرة وكانوا يشيرون دائما الى الذلول (جمل الركوب السريع) وكانت قبائل نجد تصدرها للبيع في دمشق وحلب ، ويذكر لوريمر أيضا في دليل الخليج العربى أن أفضل ابل السباق كانت تصدر من عمان بينما كانت توجد ابل أقل جودة في منطقة الاحساء التى توجد بها واحة الهفوف

والحصان العربى الذى كان هاما للسباق كان يأتى من منطقة أوسع بكثير من شبه الجزيرة العربية ، من أراض عربية غنية بالمراعى كالعراق وسوريا وساحل البرابرة في شمال أفريقيا والثروة الخاصة للرجل العربى في الجزيرة العربية هى الاحتفاظ بالخيول ، وكانت أكثر ترفا من تربية الذلول لان الحصان يحتاج الى القمح ويشرب الماء أكثر من الجمل ٠

وعلى الرغم من ذلك كان العرب يربون الخيول منذ العصور الوسطى على الاقل وكان الامراء الهنود يشترونها منهم لاستعمالها في حروبهم المحلية ٠

ويحدثنا الرواة الاوربيون في القرن التاسع عشر عن تربية الخيول في داخل شبه الجزيرة ٠ وقد اشترى الرحالة الفنلندي والين Wallin خيولا من قبيلة شمر ، في حائل من أجل محمد علي والي مصر سنة ١٨٤٥ ـ وقد فعل نفس الشي كارلو جسرماني Gusrmani الايطالي من أجل نابليون الثالث وملك سردينيا سنة ١٨٦٤ ، وذكر أن أحسن الخيول كانت من قبيلة عنزه ، واشترى القليل من مناطق القصيم ، وأخيرا وجدت الليدي آن ودلفريد بلانت المتخصصان الشهيران في الجياد الاصيلة أنواعا جيدة في منطقة حائل سنة ١٨٨٠٠ وكذلك توضح لنا تقارير ادارة فرسان الجيش في سملا أنها اشترت ألف حصان في العام صدر معظمها من البصرة والكويت ٠

ومن بين الصادرات النباتية سأذكر البن فقط وكان احتكارا عالميا ٠ وكانت مخا تصدر البن مثلما كانت ظفار تصدر اللبان ٠ وتوجد أسطورة عربية خيالية عن اكتشاف البن ، فيقال أن راعيا من اليمن أخبر المفتي أن معيزه (الماعز) بعد أن أكلت من شجيرة معينة أصبحت نشطة وامتلأت حيوية فما كان من المفتي الا أن أخذ الحبوب آملا أن تساعده على يقظة دراويشه للتعبد طوال الليل ، ولا تحدثنا القصة عمن صنع القهوة أولا بل ذكرت الحبوب فقط ٠ ولكن أول الاوربيين الذين قيل أنهم تذوقوها ٠ كانا أبان يسوعيان سيئا الحظ ، وكانا مسافرين من الهند الى الحبشه في سنة ١٥٩٠ ولسوء حظهما أسرا وأرغما على السير في وادي حضرموت ثم الى صنعاء وقد قدمت لهما القهوة في الطريق٠ وقد انتشر استعمالها سريعا بعد ذلك وفي سنة ١٥٩٦ وصلت بعض حبوب البن الى فيينا وفي سنة ١٦٢٣ كانت تباع في البندقية ثم انتشرت كثيرا بعد ذلك ، وسرعان ما فرض عليها المماليك والاتراك ضرائب باهظه ٠

ومن الطبيعي أن أتحدث عنصادرات أخرى ـ سمك ابو سيف المجفف أو السمك المجفف الذي كان يرسل الى هولندا كسماد للابصال ، وأقول الآن ببساطه أن الله قد منح العربية السعودية بما يعادل ٣٠٪ من احتياطي الزيت في العالم ٠

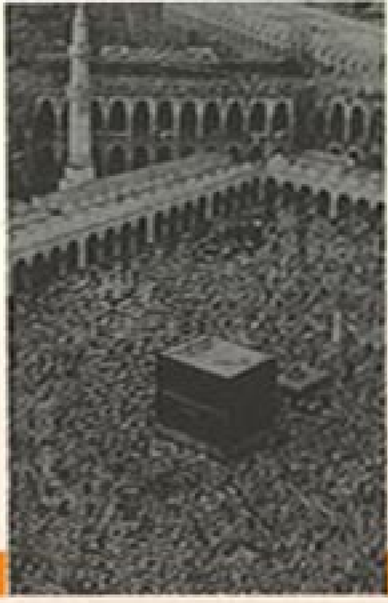

(١) ربما المقصود (دلون) البحرين القديمة ..

(٢) اللبان ، لايستعمل في العبادات ـ كما تقول الكاتبة ـ ويصح أن نقول انه يستعمل في الشعوذة وما اليها .

(٣) وتنطق (يبرين) بلهجة بني تميم .

(٤) الجرعاء ، مدينة قديمة ، كانت مركزا تجاريا من أكثر بلدان الشرق ازدهارا في العصر اليوناني القديم ، بقرب (العقير) على ساحل الخليج العربي في منطقة الاحساء ، يقول العالم الامريكي (بروس كورنوال) : (على مقربة من ميناء العقير توجد خرائب أثرية يعتقد علماء الاثار انها بقايا مدينة (قرحاء) احدى مدن جزيرة العرب ، وكانت هذه المدينة في العهد اليوناني والروماني من أشهر الاسواق والمراكز التجارية في الشرق الاوسط ، وقدر مساحتها خمسة أميال ويسميها بعض مؤرخي العرب (الجرعاء) . (محمد عبد المحسن آل عبد القادر ، تحفة المستفيد بتاريخ الاحساء في القديم والجديد ، القسم الاول ١٣٧٩ الرياض ص ٢٣) .

(٥) ربما كان الصواب : الجبيل ، المدينة المعروفة الان في المنطقة الشرقية من المملكة ، وكانت تعرف قديما باسم (عينان) .

(٦) المعروف أن الاسم الصحيح لابن ماجد هو : (أحمد) ، وفي كتاب (العرب والملاحة في المحيط الهندي) تاليف جورج فضلو حوراني ، ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر ، ص ٢٣٧ ، القاهرة ، ـ واظنه مرجع الكاتبة في هذه الفقرة ـ يقول : (فكان من سخريات التاريخ أن ملاحا عربيا كبيرا ساعد في القضاء على الملاحة العربية ، اذ لم يستطع العرب ابعاد البرتغاليين ومن تبعهم من الشعوب الاوروبية الاخرى أو منافسيهم) .

(٧) كتاب الهمداني الذي تشير اليه الكاتبة هو كتاب (الجوهرتين العتيقتين المائعتين الصفراء والبيضاء) ، قام بتحقيقه حمد الجاسر ، ولم ينشر بعد ، وقد أشار الهمداني في كتبه الاخرى الى معادن بلاد العرب مثل (صفة جزيرة العرب) . عن الكتب التي ألفت عن المعادن في بلاد العرب ، وعن كتاب الجوهرتين انظر : حمد الجاسر ، المعادن القديمة في بلاد العرب ، مجلة العرب مج ٢ ج ٩ ربيع الاول ١٣٨٨ ص ٧٩٨ ـ ٨٤٦ ، والاجزاء التي بعدها ، وعن نفس الموضوع انظر : موريتس ، المعادن في البلاد العربية القديمة ، مجلة العرب مج ٢ ج ٧ ، ص ٥٨٠ ـ ٥٩٢ .

«سكرتير التحرير»